

تري ما اسم الكروان بالإنجليزية؟

رضوى عاشور*

أبدأ بالحديث عن صبية كنتها، دخلت قسما للغة الإنجليزية من بوابة جامعة القاهرة.

لكي تفعل كان عليها أن تعبر النهر وفلاحة مختار ومسلة حجرية، نصب شهداء تأدبت في حجارته رجفه روحهم وهي تطالب. "اغلقي الباب" كان الأستاذ في قاعة الدرس يحاضر باللغة الإنجليزية فتسرى بيننا أطياف وخيالات ونتف من حياة تسكن كلمات عن زمان غير الزمان ومكان ليس هو المكان. "اغلقي الباب" ووراء الباب شمس تقدح ونخيل مديد وبرج ساعة رنين دقائقها يلون الفضاء وفلاحة ناهضة من حجر دافئ بأعمار أجيال خاب سعيها أو أصاب، وكروان تسمعه ساعة يميل قرص الشمس إلى غروب: "تري ما اسم الكروان بالإنجليزية؟" لم نكن أطفالا فلم يجرؤ أي منا على قول ذلك الذي قاله نقوليوس الصغير في كريت البعيدة يوم سمع عصفورا يغرد خارج قاعة الدرس فقال لأستاذه "أرجوك يا سيدي اسكت قليلا، دعنا نسمع العصفور".

كان للأطياف سحر البيان وكانت الشمس نداهة تسحب الصبية إلى مسارب تفتح على مسارب كحكايات شهرزاد: ألف ليلة وليلة، ألف نهار ونهار من تاريخ مصر، ثقافتها صندوق للعجب. تنقسم الطريق أمام الصبية سكتين تسلكهما، فيتوزع العمر القصير بين إتقان لغة على طريق دارس الخريطة يتقن تفاصيلها وتضاريسها خطوطا على ورق، وعشق لغة انفلتت من معطف الأجداد تدفئ القلب فيسكنها وتصير له مستقرا.

* الكلمة الافتتاحية التي ألقها رضوى عاشور في المؤتمر الدولي الثاني عن الأدب المقارن (١٩٩٢)، الذي عقده قسم اللغة الإنجليزية وآدابها بكلية الآداب في جامعة القاهرة. وتم نشر الكلمة ضمن أوراق المؤتمر باللغتين العربية والإنجليزية: أوراق المؤتمر الثاني في الأدب المقارن: التلاقي في اللغة والأدب، ١٩٩٣، ص ١-٥.

Radwa Ashour, "What is the English for 'Karawan'?", *Proceedings of the Second International Symposium on Comparative Literature: Encounters in Language and Literature*, ed. Hoda Gindi, Department of English Language and Literature, Faculty of Arts, Caro University (1993), pp. 1-5.

Cairo Studies in English – 2025(1). <https://cse.journals.ekb.eg/>

أتحدث عن ذلك التوزع بين ثقافتين والإسراء إلى قبلتين، وأتحدث أيضا عن الانقسام بين قاعة درس تختزل حياة خارج قاعة الدرس تمور، ثم أندارك وأقول: "هل حقا كان الباب مغلقا تماما؟" أو "هل كان مغلقا في أي وقت؟" كيف إذن نفسر وجود عديدين معلومين من خريجي هذا القسم تحديدا أسهموا بفعلهم وإنتاجهم الثقافي في حياة البلاد، من لويس عوض إلى تلك الروائية الطالعة باقتدار مدهش، وأقصد أهداف سوييف. أسماء متعددة نقشت أو تنقش ما تزال، علامتها الفريدة في الزمان. لم يكن الباب إذن مغلقًا تمامًا فهل أقول إنه كان مواربا يسمح بأن يخرج البعض الأكثر عنادا وتميزا، بحذر وخفة، ليعقدوا الارتباط بين قاعة الدرس ودرس البلاد؟ صحيح ولكن الصحيح أيضًا أن جموع الطلاب منذ زمن، كما الآن، كانوا يجلسون كشخص كهدف أفلاطون الأسطوري وقد ولّوا للباب والشمس من ورائه ظهورهم، وراحوا يتابعون باهتمام، ينقص أو يزيد، الخيالات أمامهم على الحائط.

ثم يزيد الأمر تعقيدا في واقع متعثر يطلب مهارة الترجمان فيأتي الطلاب، سوى قلة، يقصدون إجازة في اللسان التجاري الطليق، مادام السوق يحتاجهم تروسا لغوية في بنوكه وفنادقه وشركاته السياحية. صارت الكثرة لا تبغي أطيافا ولا سحر بيان الأطياف: الشعراء، الروائيون، القصاصون، المسرحيون، قطيفة نسجهم، حضور شخصوهم، موسيقى شعرهم، سفر وجودهم، سر الرحلة والرحال، قدس الوصول، من يطلبها؟ تبقى الأطياف في قاعة الدرس مهمشة تعيش وحشة الزائد عن الحاجة وبؤس غير المرغوب فيه.

وبين باب مغلق وباب مفتوح على بابلي السمات تعيش أقسامنا أزمته، أزمة وجود وهوية وسؤال عن خصوصية الدور المنوط بها.

ولا تنفصل هذه الأزمة عن أزمة أكبر تلم بالوجود الثقافي للبلاد حيث التعثر غالب والانقسام قائم بين أصولية وتفرنج. أصولية تجتث الجذور سوى جذر وتهيل التراب على ألف نبع ورافد من صلب تراثنا الثقافي ورصيدنا المتراكم مع كل يوم جديد من المعارف والخبرات، وتفرنج يدعي الحداثة، قبلته وجها لوجه أمريكا وجناحا نسرهما يحمي ويضم، تفرنج يقطع الجذور كلها فيصدق عليه الحديث النبوي الشريف عن "المنبت الذي لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى"، يستبدل بعناصر ثقافته ثقافة اقتصادية ومحاكاة قروود

وببغاوات، لا يغنيها تقافزها النشط وألوان ريشها الزاهية عن هويتها الضائعة شيئاً. ويبدو في المشهد المرتبك الراهن وكأن الخيار بين قطيعة معرفية وقطيعة أخرى معرفية، في أولهما انكفاء على الذات تتنكر لخباياها الثمينة وللعالم الواسع من حولها، وفي ثانيهما نفى قاطع للذات وإنكار لمنابع وجودها الحي. وبين الخيارين مساحة كابية تخلط الحابل بالنابل منتجة مسوخا ثقافية عجيبة.

الحديث عن الأدب المقارن فرع من أصل حديث عن التفاعل الثقافي ودرس تاريخنا الفرعوني والقبطي والإسلامي والمعاصر في هذا المجال عميق ووافر، فقد جادت ثقافتنا بسخاء فذّ، وأخذت كأخذ الكريم، بلا حرج. وحين حكم الأخذ والعطاء قانون الجسد العفي واحتياجاته استطالت ثقافتنا كما استطالت ثقافة الآخر. إن التفاعل شرط حياة الثقافات ونموها في الزمان، ولكن شتان ما بين الجسد العفي يأخذ حاجته محكوما بشروطه والجسد الواهن متشيئاً يملأ عليه فيزيد وهنا على وهن، يتداعى، تنقسم الذات على الذات والوافد على الموروث، وتجربة الحاضر المعاش على خبرة الماضي المتراكم. يحدق الوجه في المرآة فيرى نفسه غير نفسه، يتعرف عليها ولا يتعرف.

وهل يعقل ألا تتعرف مصر على نفسها وقد وهبها الزمان ما وهب وأورثها الأسلاف ما أورثوا وتحددت ملامحها كما الخريطة منذ ما لا يحصى من سنين؟! كيف لمصر وهي أم الدنيا وواسطة العقد بين البلاد أن تتوه عن نفسها وتتعثّر إلى الحد الذي يراودها بعض نفسها أن تقطع جذورها؟!!

أذكر الآن كلمات كازانتزاكيس في سيرته الذاتية حين يقول: إن في طواف اليوناني ببلاده رحلة منهكة معذبة، إذ ترافقه فيها أصوات أسلافه غاضبة تنادي، والصوت يقول كازانتزاكيس هو الجزء الوحيد من الجسد الذي لا يتحلل ولا يفنى، تثير الرحلة السؤال: كيف لليوناني أن يواصل تراثه الوطني دون مسخه أو الإساءة إليه؟ كيف له أن يكون امتدادا للكفاح الإنساني لأجيال بلا حصر شكلت بنجاحاتها والفشل الأرض التي ولد عليها ونشأ فيها؟ إن كل يوناني، يقول كازانتزاكيس، يحمل على عاتقه واجب مواصلة أسطورة اليونان الأبدية.

ولكل بطبيعة الحال يونانه، ومصر التي نحن منها تحمل في كل ركن وزاوية أثرا من آثار الأسلاف تشهد على كفاحهم لترسيخ معنى للوجود وقيمة. ومن كل ركن وزاوية أسمع

الصوت ينادي به رجفة حزن وعتب، فهو مخذول ومغبون وينادي. فكيف لنا أن نطيب خاطر الأسلاف ونبدد بعض حزنهم وننصف صوتهم فينا إلا بمواصلة بناء الحياة بما يليق بهم وبنا.

إن الثقافة ليست حجرا كريما في باطن الأرض مكنونا نستخرجه لنعرضه في غبطة في المتحف الوطني، وليست الثقافة قلادة ثمينة نتباهى بها ونترن في غدونا والرواح، وهي ليست معبدا قديما نطلق البخور في ردهاته ونسجن الروح فيه. الثقافة نسغ تواصل واستمرارية في كل لحظة في الزمان يدخل الجديد على القديم لا ينفيه ولا ينتفي به أو فيه. لا يرضى الأسلاف صون تراثهم إلا بمواصلته والإضافة إليه فيصان.

والجامعة، ما الجامعة سوى علاقة قديم بجديد وأليف بغريب وساحة تجمع المعلوم في لحظة من الزمان لتجاوز فتكون قوسا يطلق نبله إلى المستقبل. هكذا كانت في المنشأ والمبتدى وهكذا تبقى وتكون.

وهذه الجامعة، جامعة القاهرة المزنة بتاريخ مصر وثقافتها، جارة منف ونيل مصر وأهرامها، أنشأها رواد بقروش الأهالي وحلمهم الكبير وأرادوا لها أن تكون سندا في مشروع تحرير البلاد ونهضتها. هذه هي جامعة القاهرة تدخلها من باب مختار الذي أسكن حجارته حلم التواصل فأطلق من رسوخ الجرائيت القديم رؤية تعقد الصلة بين ماضٍ فرعوني وحاضر تجسد امرأة - فلاحه تنتج بصفتها مع غد البلاد بشرا وزرعا.

أقول في هذه الجامعة ومنها نحلم بتفاعل ثقافي يليق بنا وبحكايتنا مع الزمان. نرتحل شمالا أو جنوبا، نرتحل شرقا أو غربا، نأخذ بلا حرج وننمو بلا حرج ما دام للمرتحل عنوانه في الزمان والمكان، بيته المكين مزج فذ بين عمارة فراعنة بنائين وعمارة عرب أطلقوا روحهم في القباب والأقواس والعقود، بيت مكين عامر بستانه بورد الزمان وخمائل الرؤيا وريحان الشك أو اليقين.

ولأننا على مشارف القرن الواحد والعشرين فلقد رأينا وعرفنا كوكبنا الأرض كرة صغيرة سابعة في الفلك تأخذ القلب كصغير يطلب الاحتضان. كلنا، كلنا، في مشارق الأرض ومغاربها، في الشمال والجنوب، كلنا معا نواجه مصيرنا المشترك في هذا البيت الأرضي. نعيش معا متداخلين متقاربين ولكني إذ أقول ذلك لا أدنو من قريب أو بعيد من ذلك المفهوم الذي صاغه برجنسكي ذات يوم عن قرية عالمية واحدة تنتفي الحدود فيها

والفروق الثقافية وتسقط فكرة الأوطان والقوميات وقد شكلت ممارسات أهلها معرفة تندفق من القمر الصناعي وبنك المعلومات والحاسب الإلكتروني. لا أتحدث عن مركز وهوامش في إمبريالية ثقافية تبتلع الأوطان والثقافات. بل أتحدث على العكس من ذلك، عن تعايش ثقافات تمتد كالفسيفساء بامتداد الأوطان. لكل لسان وثقافته هي لونه المحدد وإن جاء حصيلة لتراكب ألوان عديدة وتفاعلات ممتدة.

سأرسم مساحتي من الكرة بلون أخذه من موروث أجدادي وحصيلة قلبي الذي عاش زمانه فسمع ورأى وأحس وعرف الخيبة والفرح، وأمزجه بشيء من ماء النيل الذي هو نهر كباقي الأنهار، صحيح، والذي يملك الروح، مع ذلك، بحكاية فريدة تخصه وحده، تتجاوز الألوان تتعاشق الألوان لكن لا لون فيها يجور سواه يشوّهه.

وهذا القسم، قسم اللغة الإنجليزية بجامعة القاهرة، يعمره طلاب وأساتذة لسانهم عربي وثقافتهم مزج فريد من عناصر فرعونية وقبطية وإسلامية وحديثة. هو قسم في بلد يعذبه التخلف والفقر تمامًا كما يعذبه حلم التحرر والنهوض. وإذ يعي القسم هويته هذه يفتح أبوابه يشرعها على مصراعها بين الأطياف وشمس البلاد.

ومن موقعنا في الزمان والمكان، بملامحنا المقيمة في الزمان والمكان، نمد أيدينا من موقع الندّ دائماً لتتشابك وتحتضن الكرة الصغيرة الغالية.